يبصرون أمامهم غير حفرة ضيّقة مظلمة باردة. أمّا الذين ظلالهم شفافة وخفيفة فأولئك يطيب لهم في خريف العمر أن يتلفّتوا إلى الوراء. ولا هم يطبقون أجفانهم عمّا أمامهم. فالشتاء لا يؤذي إلّا الذين بدون مأوى، والذين ما اختزنوا له مؤونة من مأكل ومشرب وكساء ووقود، أمّا الذين أعدّوا للشتاء عدّته فأولئك يجنون حتى من الشتاء أجمل المشاعر والأفكار.

وفي خريف العمر تتراخى لجاجة اللحم والدم إلى حدّ بعيد، فلا نار تشبّ في الضلوع، ولا سياط تلهب القلب والدماغ، ولا أطياف تحوم حول الوسادة والسرير، ولا قصور في الغيوم، ولا عيون لا تشرق السعادة إلّا من خلف أجفانها. وإنّها لنعمة ليس من السهل تقديرها أن يصبح الإنسان في منجى من وساوس الشهوات الجامحة وأن يعرف أنّها ما كانت غير وساوس لا تملك مفتاح الهناء وقد تملك مفتاح الشقاء.

وفي خريف العمر يحلو التأمّل وتستطاب محاسبة النفس. ومن قطع من العمر ربيعه وصيفه وأدرك خريفه لا بدّ له، مهما يكن بليد الفكر والخيال، من أن يسأل نفسه عن القوى التي كانت هاجعة فيه منذ أن أبصر النور من أين جاءت.